



ثمة إجحاف كبير في حق السوريين لجهة اعتبار بلادهم مجرد موقع إستراتيجي، أو بمثابة مختبر لحسابات القوة الجيوسياسيّة، أو محض ساحة للصراعات الدوليّة والإقليميّة. هذه نظرة تعسفيّة تعلّى من شأن الخارجي على الداخلي، وتحجب نوعاً من التواطؤ على تغييب شعب سوريا، وامتهان إنسانيّتها، ومصادرة إرادتها، ونزع مشروعية محاولاته الظاهر على مسرح التاريخ.

هكذا ينبغي التمييز، وعدم الخلط، بين ثورة السوريين من أجل حرّيتهم وكرامتهم وبين الصراع على سوريا، فالصراع الدولي يخصّ مصالح القوى الكبيرة، والفاعلين الدوليين والإقليميين، لكن قضيّة الحرية في سوريا هي قضيّة تخصّ شعبها وحده، أي رؤيتها لذاته ولحقوقه ومصالحه.

لا يعني ذلك إنكار حقيقة مفادها بأن ثمة صراعاً على سوريا لكن هذا يستلزم إدراك أن الأمر ذاته ينطوي على عديد من البلدان المهمة في الشرق الأوسط، وفي شكل خاص على مصر والعراق، كما يستلزم أن نلحظ، أيضاً، أن الإرادة السياسيّة للولايات المتحدة لم تعد قدرأ لا يمكن الفكاك منه، بخاصة وهي تمرّ بإحدى لحظات ضعفها. ومثلاً، في الحالة الأولى اضطررت إدارة الأميركيّة إلى التجاوب مع ثورة شعب مصر، على الضدّ من مصالحها المتعلّقة بالتحالف مع نظام مبارك المخلوع، وفي الحالة الثانية فقد سحبـت قوّاتها من العراق رغم إدراكتها أن هذا البلد بات بمثابة لقمة سائفة لغريمتها إيران! **ويستنتج من ذلك أن التقاطعات السياسيّة**، غير المباشرة وغير المتفق عليها، بين الفاعلين الدوليين والإقليميين والمحليّين، على اختلاف مصالحهم وتباين رؤاهم، هي أمر يحدث، لا سيما في عالم بات شديد التناقض والتداخل والتشابك. وقد شهدنا ذلك مثلاً في التوافق الدولي والإقليمي على تعطية مدخلات سوريا في لبنان ومشاركتها في تحرير الكويت، وفي «تواطؤ» إيران مع الغزو الأميركي لأفغانستان والعراق، ومناهضتها، والمليشيات التي تدعمها، لعمليات المقاومة ضد القوات الأميركيّة (وهذا ينسحب على «حزب الله» في لبنان)، ما يفيد بأن القوى الدوليّة والإقليميّة تكيّف نفسها مع التطورات الناشئة لضمان مصالحها.

وما يجب إدراكه أن وضع سوريا في مهبّ الصراعات الدوليّة والإقليميّة إنما هو نتيجة للسياسات الخارجية التي انتهجهـا في العقود الماضية، لا سيما في شأن محاولاتها الإمساك بأوراق إقليميّة ساخنة (لبنان، فلسطين، العراق، إيران)، ربما بعضها يفيض عن حاجتها.

وبغض النظر عن مشروعية أو وجاهة الاضطلاع بهذه الأدوار، فإن المشكلة بالنسبة إلى سوريا ظلت تكمن في محاولاتها تعظيم مكانتها انطلاقاً من دورها الخارجي، وليس انطلاقاً من إمكانياتها ومواردها الذاتية (البشرية والعسكرية والاقتصادية والعلمية)، الأمر الذي أثقل عليها، وحملها فوق ما تحتمل.

ثمة مشكلة أخرى، أيضاً، وهي تتمثل في أن أدوار سوريا الخارجية كانت تفتقد لعوامل قوة مجتمعية داخلية، ليس لأن هذه الأدوار لم تكن موضع إجماع داخلي فقط، وإنما لأن النظام السائد لم يؤسس ذاته على شرعية وقبول مجتمعين، بقدر ما فرض ذاته بوسائل الهيمنة والإكراه والتهميش والاستبعاد.

هذا يفيد بأن السياسات الإقليمية الفائضة عن الحاجة، وبالأساس منها التماهي مع السياسة الإيرانية، وبغض النظر عن فاعليتها وصدقيتها، هي التي أدخلت سوريا في أتون التجاذبات والمخاطر الخارجية. كما يفيد ذلك بأن السياسات التي تم انتهاجها على الصعيد الداخلي هي التي أضعفـت المجتمع، وزعزعتـت لحمـته، وتركـته مكشوفـاً إزاء التحديـات الداخـلية منها والخارجـية.

عموماً كانت السياسات السورية الخارجية دائمـاً مثيرة للاهـتمام، وكان واضحـاً أنها تضعـ البلد في مواجهـات وتوظيفـات مجانيةـ، لا تقصدـ لذاتهاـ، بقدرـ ماـ أـنـ القـصدـ منـهاـ تعـزيـزـ صـورـةـ السـلـطـةـ،ـ وإـسـكـاتـ المـطـالـبـ الشـعـبـيـةـ المـتـعـلـقـةـ بالـحرـيـاتـ وـالـمـساـواـةـ وـالـعـدـالـةـ الـاجـتمـاعـيـةـ وـمـسـتـوىـ الخـدـمـاتـ وـأـهـلـيـةـ جـهـازـ الدـوـلـةـ.

وقد يمكن القول إن التجربة السورية أكدـتـ قصورـ الـادـعـاءـاتـ المـتـعـلـقـةـ بـالـوطـنـيـةـ إـذـاـ لمـ تـبـثـقـ منـ حاجـاتـ النـاسـ،ـ فـهـذـهـ لـيـسـتـ مجردـ تـبـيرـ جـغـرـافـيـ يـنـبـثـقـ مـنـ الـأـرـضـ/ـالـإـقـلـيمـ،ـ وـلـاـ تـتـحدـدـ بـدـلـالـةـ الـخـارـجـ فـقـطـ،ـ كـمـاـ هـوـ دـارـجـ فـيـ الـخـطـابـاتـ «ـالـقـومـيـةـ»ـ وـخـطـابـاتـ التـحرـرـ الـوطـنـيـ،ـ وـإـنـماـ هـيـ مـفـهـومـ مـنـبـثـقـ مـنـ الـمـوـاـطـنـةـ بـمـقـاصـدـهـاـ السـيـاسـيـةـ وـالـقـانـونـيـةـ الـمـتـمـثـلـةـ فـيـ دـوـلـةـ الـمـوـاـطـنـينـ الـأـحـرـارـ وـالـمـتـسـاوـيـنـ.

السؤال الذي يمكن طرحـهـ الآنـ يـتـعـلـقـ بـمـدـىـ تـأـثـيرـ التـحـولـاتـ الـجـارـيـةـ فـيـ سـورـياـ عـلـىـ الـوـاقـعـ الـإـقـلـيمـيـ،ـ لـاـ سـيـماـ عـلـىـ تـفـاعـلـاتـ الـقـوـىـ الـمـؤـثـرـةـ فـيـ الشـرـقـ الـأـوـسـطـ.

فعـلىـ المـدـىـ الـقـرـيبـ يـمـكـنـاـ مـلـاحـظـةـ ضـعـفـ وـتـفـكـكـ محـورـ إـيرـانـ سـورـياـ «ـحـزـبـ اللهـ»ـ «ـحـمـاسـ»ـ،ـ وـالـذـيـ يـعـرـفـ بـمحـورـ «ـالـمـقاـوـمـةـ وـالـمـمانـعـةـ»ـ،ـ فـقـدـ غـارـتـ «ـحـمـاسـ»ـ هـذـاـ الـمحـورـ،ـ بـعـدـ أـنـ شـهـدـتـ أـنـ الرـبـيعـ الـعـرـبـيـ يـعـدـهـ بـمـكـانـةـ أـفـضلـ.ـ أـمـاـ «ـحـزـبـ اللهـ»ـ فـقـدـ تـرـاجـعـتـ صـدـقـيـتـهـ وـشـعـبـيـتـهـ فـيـ الـأـوـسـاطـ الـشـعـبـيـةـ الـعـرـبـيـةـ،ـ بـسـبـبـ دـعـمـ حـسـاسـيـتـهـ حـتـىـ الـأـخـلـاقـيـةـ لـمـ يـجـريـ فـيـ سـورـياـ.ـ وـمـعـ أـنـ هـذـاـ الـأـمـرـ حـصـلـ قـبـلـاـ بـسـبـبـ اـنـكـشـافـ سـيـاسـاتـ إـيرـانـ الـمـذـهـبـيـةـ فـيـ الـعـرـاقـ وـلـبـنـانـ،ـ لـكـنـ الثـوـرـةـ السـوـرـيـةـ هـيـ الـتـيـ كـشـفـتـ هـذـاـ حـزـبـ باـعـتـبارـهـ مـجـرـدـ حـزـبـ آـخـرـ عـصـبـويـ،ـ طـائـفيـ وـدـينـيـ وـمـغلـقـ.

فـيـ إـيرـانـ فـيـ لـاـ تـبـدوـ فـيـ أـحـسـنـ أـحـوالـهـاـ،ـ رـغـمـ كـلـ التـصـرـيـحـاتـ الـعـنـتـرـيـةـ الصـادـرـةـ عـنـ قـيـادـتـهـاـ،ـ فـهـيـ اـسـتـبـشـرـتـ بـالـرـبـيعـ الـقـادـمـ مـنـ تـونـسـ إـلـىـ مـصـرـ،ـ لـكـنـاـ اـنـقـلـبـتـ عـلـيـهـ بـعـدـ أـنـ اـنـتـقلـتـ رـيـاحـهـ إـلـىـ سـورـياـ.ـ عـدـاـ عـنـ ذـلـكـ فـإـنـ إـيرـانـ تـواـجـهـ حـسـارـاـ اـقـتـصـاديـاـ وـعـزـلـةـ سـيـاسـيـةـ،ـ وـثـمـةـ مـشـكـلـاتـ اـقـتـصـاديـةـ مـزـمـنـةـ تـعـانـيـ مـنـهـاـ،ـ وـضـمـنـهـاـ اـنـخـفـاضـ قـيـمـةـ عـمـلـتـهـ بـمـقـدـارـ النـصـفـ (ـفـيـ الـأـشـهـرـ الـقـلـيلـ الـمـاضـيـةـ)،ـ وـثـمـةـ اـنـقـسـامـ فـيـ نـخـبـتهاـ الـحـاكـمـةـ (ـبـيـنـ الـمـرـشـدـ وـالـرـئـيـسـ)،ـ هـذـاـ فـضـلـاـ عـنـ التـلـمـلـ الـكـبـيرـ فـيـ بـيـئـاتـهـ الـشـعـبـيـةـ وـالـتـيـ تـبـشـرـ بـرـبـيعـ إـيرـانـيـ جـدـيدـ قـادـمـ.

هـذـاـ يـعـنيـ أـنـ التـدـاعـيـاتـ النـاجـمـةـ عـنـ الـرـبـيعـ الـعـرـبـيـ حـجـمـتـ كـثـيرـاـ مـنـ طـمـوـحـاتـ إـيرـانـ الـإـمـبـراـطـوريـةـ،ـ فـهـيـ بـعـدـ التـطـورـاتـ السـوـرـيـةـ لـنـ تـسـتـطـعـ اللـعـبـ كـمـاـ فـيـ السـابـقـ فـيـ مـنـطـقـةـ الـشـرـقـ الـأـوـسـطـ،ـ وـرـبـماـ يـقـصـرـ مـجـالـ نـفـوذـهـ عـلـىـ الـعـرـاقـ وـحـدـهـ،ـ لـأـسـبـابـ عـدـيـدةـ،ـ لـكـنـ هـذـاـ لـنـ يـكـونـ مـتـاحـاـ لـهـاـ،ـ عـلـىـ الـأـرجـحـ،ـ فـيـ مـنـطـقـةـ الـمـشـرـقـ الـعـرـبـيـ،ـ كـمـاـ لـنـ يـكـونـ ذـلـكـ مـنـ دـوـنـ إـثـمـانـ مـقـابـلـةـ مـنـهـاـ.ـ بـالـمـقـابـلـ رـبـماـ تـكـونـ تـرـكـياـ هـيـ الـكـاسـبـ الـإـقـلـيمـيـ الـأـكـبـرـ مـنـ التـطـورـاتـ النـاجـمـةـ عـنـ التـورـاتـ الـشـعـبـيـةـ،ـ وـهـذـاـ مـاـ سـتـكـشـفـ عـنـ التـطـورـاتـ الـمـقـبـلـةـ.ـ وـفـيـ الـحـقـيقـةـ فـإـنـ تـرـكـياـ اـسـتـطـعـتـ تـحـقـيقـ هـذـهـ الـمـكـانـةـ بـفـضـلـ قـوـتهاـ النـاعـمـةـ،ـ بـتـماـهـيـهـاـ مـعـ التـورـاتـ الـشـعـبـيـةـ،ـ

وبالنموذج السياسي الذي تطّرّف له والمتّمثّل في نظام ديمقراطي وإسلامي / وسطي، هذا فضلاً عن نموذجها كدولة صاعدة اقتصادياً، وذلك في مقابل إيران التي قدمت نموذجاً لدولة مستبدة تتوجّه تصدير الثورة بالاستناد إلى عصبية مذهبية وبالاعتماد على أدّعاءات القوة العسكرية.

تبقي إسرائيل، وهي بيت القصيد هنا، بهذه الدولة تبدو حقاً أكثر دولة متوجّسة من التداعيات التي قد تنجم عن ثورات الربيع العربي عليها، ذلك إنها باتت الآن في مواجهة واقع سياسي لم تعتد عليه، وأهمّه صعود دور المجتمعات العربية في تقرير سياساتها ومصالحها. كما ينبغي أن نلاحظ هنا مسألة على غاية في الأهمية وهي أن انهيار أنظمة عربية موالية للغرب أنهى أسطورة طالما روجتها إسرائيل عن نفسها، باعتبارها القاعدة التي تصنّون المصالح الأميركيّة والغربيّة في الشرق الأوسط، بالتزامن مع انتهاء ادعائهما كالديمقراطية الوحيدة في المنطقة.

وفي الواقع فإن الثورات العربية تخلق مشاعر وإدراكات متضاربة في إسرائيل، في شأن رؤيتها لذاتها كدولة يهودية، ودورها على الصعيد الإقليمي، وفي شأن مستقبلها. في هذا الإطار قد يمكن القول إن الثورات الشعبية، بالتغييرات التي أحدثتها، أتاحت نوعاً من الاسترخاء، ولو المؤقت، في إسرائيل، حيث الدول العربية مشغولة عنها بأوضاعها الداخلية، لكن الشيء الأكيد أن إسرائيل هذه ليست في وضع يسمح لها بأن تكون متيقّنة من مستقبلها.

المصدر: أخبار الثورة السورية

المصادر: